أوربا والإسلام

للاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
استاذ الفلسفة بكلية اصول الدين

يرى كثير من الناس أن الاسلام واضح جلى ، وأن تعاليمه سهلة ميسورة تنسجم مع العقل والمنطق ثم يندهشون لعدم أخذ الاوربيين بهذا الدين وعدم اعتناقهم له زرافات ووحدانا ..

والواقع أن العوامل التى تمنع الاوربيين من اعتناق الاسلام كثيرة قوية ، ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع الى المسلمين أنفسهم .. ولنتحدث أولا عن العوامل الخارجية عن الاسلام والمسلمين ..

١ ـ وأول هذه العوامل هى الكنيسة :

لقد أتقنت الكنيسة فن النظام ، فلا ارتجال فيها ، كل شىء فيها معد مرتب منسق ، قد بحث عن روية واعد اعدادا تاما ...

وكان مما أعدته مشروعين كبيرين أحدهما : للتبشير ، والثانى : لصد الهجوم عن الديانة المسيحية ..

أما فيما يتعلق بالتبشير فانه من الاوليات عندها : أن يعرف المبعوث اليه المرسل اليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، وديانتهم ، ومواطن الضعف فيهم والوسائل التى تجذبهم ، وأن يعلم فضلا عن ذلك بعض مبادىء الطب ويعلم قبل ذلك وبعده كيفية الهجوم على الديانة المتوطنة .. وكيفية الدعوة للديانة المسيحية ، أما المشروع الآخر وهو الذى يعنينا على الخصوص هنا ، فهو على الخصوص يتركز فى دراسة مستمرة متجددة فى أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين لدى المسيحيين أنفسهم . وقد برعوا فى نشر الاضاليل على كل دين غير المسيحية ..

وما نشر من أضاليلهم عن الاسلام لا يحصر ولا يعد انها اضاليل تنشر متتابعة متكررة ، تتردد فى صورة مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد ، الى ايمان من تنشر عليهم بها ، وتبلغ بهم الصفاقة الى أن يعكسوا الحقائق عكسا تاما ، فالدين الاسلامى مثلا ، وهو دين التوحيد الخالص ، ودين التنزيه التام ، يشيعون عنه أنه دين عبادة الاوثان ..

ويكررون ذلك فى مختلف الامكنة والازمنة، وينتهى المسيحيون بالاعتقاد بأن هذا الدين انما هو : عبادة الاوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلا ، وتشويها ، وعكسا للحقائق ...

ومن أهم الوسائل ايضا لتحصين المسيحية ما يسمونه نظام الحرمان من الدين المسيحى ، وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرم قراءة أى

كتاب ترى فيه خطرا على المسيحية سواء كان هذا الكتاب هجوما عنيفا على المسيحية ، أو دعاية بارعة للاسلام ، أو حتى نمطا ممتازا من الدعايةالقوية لسعة الافق وتحرير الفكر ٠

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شـأن كثير من الـكتب الممتازة ، واستعملت هذا الحق ايضا فى شأن كثير من الكاتبين ، وكان موقفها من كل كاتب لا يمكنها أن تستولى عليه ، بوسيلة الرغبة أو بوسيلة الرهبة ، أن تحرم قراءة كتبه ، وأن تحرمه هو من رحمة السماء ٠٠

عند الكنيسة ، اذن الرغبة والرهبة ، عندها المال ، وعندها الحرمان ٠٠

٢ ـ على أن الاسباب التى ترجع الى المسـلمين : لا تقـل خطرا عن الكنيسة ٠

ان أية دعوة مهما كانت من السمو لا يمكن أن تجتذب اليها الانصار الا اذا كان لها دعاية ، والاحزاب لا تقوم بغير الدعاية ٠٠ والبضائع لا تروج بغير دعاية وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكانا يجعلها فى الدرجة الأولى من الأهمية ٠٠٠

ويعرف ذلك المسلمون ، يعرفه تجارهم ورجال الاحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنهم لا يعملون به فيما يتعلق بنشر الاسلام !!!؟

أين دعاتنا فى الشرق أو فىالغرب؟ أين مبعوثونا ؟ أين المبشرون منا٠٠؟ لا شىء فى ذلك مطلقا ، ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ومبعوثى الازهر الى الاقطار الخارجية : انما بعثوا لتعليم الحسـاب والخط والامـلاء واللغـة العربية فى مدارس اسلامية ابتدائية أو اعدادية أو ثانوية ٠٠ ليس لنا فى الخارج قط مبعثون واذا كان الدين الاسلامى ينتشر فانما ينتشر بقوته الذاتية ، رغم الهجوم عليه ورغم العقبات التى تعترض طريقه ٠٠

ولنقارن ذلك كله بالارساليات التبشيرية ، ومن أمامهما ومن خلفهما المستشفيات ، والملاجىء ، والمدارس ، والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ ، ولنتصور كفتى ميزان احداهما لا شىء فيها ، وتلك هى كفةالمسلمين بالنسبة للاسلام والاخرى فيها كل شىء وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية ٠٠

وسبب ثانى تحدث عنه جمال الدين الافغـانى ، وكان يرى أنه أقوى الاسباب ، ذلك هو حالة المسلمين ٠٠٠

وكثيرا ما قال جمال الدين : ان الغربيين يستمدون فكرتهم عن الاسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فانهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين ، فرقت بينهم الاهواء والشهوات ، وقعـدت بهم الصغائر ، وانصرفوا عن عظائم الامور ، واصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الاسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا ٠٠٠

ينظر الغربيون الى المسلمين فى العصر الحـاضر ، وينسـون شيئين ، ينسون ان المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالاسلام ، وتكاد

الصلة التى بينهم وبينـــه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمـــة المسلمين وقوتهم أيام أن كانوا مستمسـكين بالاســـلام وأيام أن كانت الدنيا لهم ..

ولعل المسلمين يعودون الى دينهم صافيا نقيا، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الاسلام قويا ساميا .

وآداب الاسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلا قويا مهذبا كريم النفس ، ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن الاسلام ..

ولنتخذ مثلا بسيطا ، مسألة النظافة .. لقد دعا الاسلام الى النظافة دعوة لم يدعها دين من الاديان ولم يدعها مذهب من المـذاهب قديمـا أو حديثا ، ولكن اذا نظرنا الى الاقاليم الاسلامية أو الى الاحياء الاسلاميـة ، وقارناها بالاقاليم ، أو الاحياء الاخرى نجد الفرق واضحا ، سواء كنا فى مصر ، أو فى تونس ، أو فى مراكش ، أو فى غير ذلك من البلدان ونأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الامم الاسلامية ..

فقد دعا اليها الاسلام فى صور لا حصر لها ، وبأساليب لا حدلتنوعها، ممهدا متوعدا تارة ، مرغبا محببا تارة أخرى ، متحدثا عن الثمرات المعنوية والادبية والاخروية ، ومتحدثا عن الثمرات المادية والدينوية للاتحاد ،ومع ذلك فقد كان كل ذلك صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وخذ آداب الاسلام واحدا فواحدا ، وانظر الى حال المسلمين .. هـل تجد توافقا ، وانسجاما بين المسلمين والاسلام ؟

يقول جمال الدين : اذا اردنا أن ندعو للاسلام ، فليكن أول ما نبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين ، وسبب ثالث لعدم انتشار الاسلام آت من المسلمين انفسهم أيضا ، وذلك هو : عرض الاسلام وكتب المسلمين أنفسهم ...

منذ سنوات جاء أحد الامريكان ليمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الاسلام ، واتصل بالهيئات التى تمثل الاسلام ، فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الاسلام ..

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن الى كتب علم الكلام ، فهى كتب الدفاع عن العقيدة .. ولكن اذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لا ينتهى بين الذين يبحثون فيه : بالزيغ ، وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولا ينتهى ...

ثم هى تصور ، على الخصوص ، المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولا تمت بصلة الى الابحاث الحديثة ، ومن الطبيعى أن تكون كذلك ، لانهـا ألفت فى العصور الماضية ، وما ألف منها حديثا : ألف على نمطها اتباعـا للآباء والاجداد .. وبغضا للخروج عن المألوف ..

واذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير؟!
لقد انتهى تفسير القرآن الى أن اصبح مسرحا يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيو العصور المتأخرة وغشت هذه النواحى على الهداية والارشاد .. فلا يكاد يتنسم القارىء لها من خلال نحوها وصرفها شيئا مما انزل الكتاب من أجله .. أى الهداية للاقوام !!
واذا كانت كتب الكلام قد استفاضت فى الحديث عن القدر ، مع نهى رسول صلى الله عليه وسلم نهيا صريحا عن الحديث فيه ، واذا كانت قد استفاضت فى الحديث عن صلة الذات الالهية بالصفات اذ أنه محاولة لاكتناه الذات الالهية التى نهينا عن التفكير فيها ، وامرنا بالتفكير فى آثارها واذا كانت كتب الكلام قد تعرضت لذلك دون جدوى ولا ثمرة فان كتب التفسير أيضا قد تعرضت لهذه المشاكل نفسها دون جدوى ولا ثمرة .
ومما لا شك فيه أن اكتناه سر الالوهية من حيث الذات ، أو من حيث القدر ، من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه ..
ولكن اكتناه سر الالوهية من الامور التى تتطلع اليها نفوس طائفة من الناس أرادوا بعقلهم المحدد ، تعيين مالا يحد وطمعوا فى أن يحددوا بعلمهم الجزئى مالا يحيطون به علما ..
ونشاهد الاتجاه فى عهد الرسول نفسه ، وكان موقف الرسول منه حاسما ، والاحاديث كثيرة مستفيضة فى النهى عن الخوض فى الذات أو فى القدر ، ومما يروى فى ذلك : الامر المتكرر المتنوع بالتفكير فى الخلق دون ذات الخالق ، حتى لا نهلك ..
وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال :
« خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت اليكم؟!! انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الامر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا » .
وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، قال :
خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضبا ، حتى وقف عليهم فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الامم قبلكم : باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه فاعملوا به . وما تشابه فآمنوا به ..
وبعض الاحاديث تذكر : « فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله .. ثم انتهرنا .. أو فغضب حتى لكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان » ..
وكان من الممكن لو استقامت عقول الناس ، ونزعت من قلوبهم الاهواء والشهوات أن يكتفى بنهى القرآن ، وبنهى الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الذين فى قلوبهم زيغ موجودون فى العالم فى كل آونة وحين ، وفى كل بيئة ومكان .

فقد أطلت الفتنة فى عهـــد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ممثلة فى صبيغ الذى كان يتكلم فى القدر ، فأخذ عمر يضربه بعراجين النخل على رأسه حتى تاب ، فتركه بعد أن دمى رأسه وقال : حسبك يا أمير المؤمنين، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى ، يريد بذلك أنه قد تاب ، وأن نزغاته قد بددتها عراجين النخل وذهب مع الدم الذى سال من رأسه ...

وسأله سائل عن آيتين متشابهتين ، فعلاه بالدره ...

يقول الامام ابن قتيبة فى شرح مختلف الحديث :

« ... وقد تدبرت مقالة أهل الكلام ، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون الناس بالقذى فى عيـــون الناس وعيونهم تطرف على الاجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ولا يتهمون آراءهم بالتأويل ، ومعانى الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة ، والتولد ، والعرض ، والجوهر ، والكيفية، والابنية .. ولو ردوا المشكل منهما الى أهل العلم لوضح لهم المنهج ،واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة ..

ان عرضنا للدين الاسلامى على هـــذا النمط من العرض ، جعـــل كتبنا لا يتيسر فهمها للاجانب عنا ، ولو لم يكن فى الاسلام تلك القوة الذاتية التى تستولى على القلوب وتغمر الافئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم .

الاسلام اذن بحاجة الى عرضه عرضا ســـهلا ميسرا قويا ، وبأساليب متنوعة وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير ..

ومع كل هذا .. هل منعت هذه العوامل من انتشار الاسلام وذيوعه ؟ ذلك موضوع آخر

وبالله التوفيق

عبد الحليم محمود

* * *

المجلة :

تناول هذا المقال القيم موضوعا خطيرا فقد تحدث فيه الدكتور عبدالحليم عن العوامل الداخلية والخارجية التى وقفت حائلا بين الاســـــلام . وبين انتشاره انتشارا عالميا . مع انه أنزل للناس كافة . وجاء رحمة للعالمين .

والمجلة : يسرها أن تفسح صدرها للاقلام القادرة على تجلية هذا الموضوع الخطير .